**المحاضرة الأولى: الآداب العالمية المفهوم والمصطلح**

مصطلح العالمية بالإنجليزية هو UNIVERSALISMمن كلمة UNIVERSALوتعني العلمي أو الكوني[[1]](#footnote-1).

ويعد الشاعر الألماني يوهان فولفغانغ فون غوته**)**: Johann Wolfgang von Goethe "1832" أول من استخدم مصطلح الأدب العالمي، وأراد به الأدب الذي يرقى إلى مستوى الإنسانية في موضوعاته وفنه، ولا يتخلى في الوقت نفسه عن بعده القومي أو الوطني أو المحلي[[2]](#footnote-2).

وبالفعل فقد تحقق الأدب العالمي في شعر شعراء مناضلين دافعوا عن الإنسان، ودعوا إلى الحرية والكرامة والعدالة الإنسانية، أمثال الشاعر التركي «ناظم حكمت»، والشاعر التشيلي «بابلو نيرودا»، والروائي "غابرييل غارثيا ماركيز".

لكن إذا حاولنا تحديد مصطلح الأدب العالمي فإننا نجد أنفسنا أمام مفارقات فكرية وأيديولوجية قد صعبت تحديد المصطلح، هذه المفارقات التي جعلت كل واحد ينظر إلى الأدب العالمي من زاويته الضيقة وبالتالي سنجد أربع اتجاهات في هذا الشأن:

**الاتجاه الأول**: ينظر للآداب العالمية على أنها المحصلة الكمية للآداب القومية لكافة الشعوب طوال التأريخ البشري-بصرف النظر عن المستوى الفني والجمالي لنتاجاتها-بيد أن هذا التعريف يجعل من الأدب العالمي شيئاً غامضاً وفضفاضاً، لا يمكن حصره ويصعب دراسته لأن أي باحث يستحيل عليه الالمام بكل ما جادت به قرائح البشر عبر العصور.

**الاتجاه الثاني**: يرى في الأدب العالمي النماذج الإبداعية المختارة، التي أبدعتها البشرية بأسرها. وهذا المعنى لا يشمل النتاجات متوسطة القيمة أو الظواهر السطحية الشائعة في الآداب القومية، وإنما يقتصر على الآثار الإبداعية ذات القيمة الفنية والجمالية العالية. وبذلك يختزل ويهمش الكثير من الأعمال الفنية القومية، لكن في هذا الاتجاه نجد أن معظم الباحثين الأوروبيين يقرّون أن الأدب الأوروبي الكلاسيكي والمعاصر هو الذي يمثل الأدب العالمي. وأنصار هذا الرأي لا يتحدثون عن أوروبا كمفهوم جغرافي، بل يتصورونها كمفهوم روحي. أي أن الأدب العالمي هو الأدب المتشبّع " بالروح الأوروبية " وأن هذا الأدب لا يمكن تمثله إلا من خلال منظور الثقافة الأوروبية. وهذه وجهة نظر أوروبية ضيقة مجحفة في حق الآداب الأخرى، فآداب الشعوب الشرقية مثلا في نظرهم تقع خارج نطاق الأدب العالمي، لأن نتاجاتها لم تصبح بعد في متناول أيدي البشرية بأسرها. بل منهم من يستثني حتى الآداب (الهمجية) الغريبة من الأدب العالمي. ويدعون إلى نبذ الفلكلور وطرحه خارج نطاق روائع الأدب العالمي.

**الاتجاه الثالث:** يرى هذا الاتجاه أن الأدب العالمي ينتج عن عملية التأثير والإثراء المتبادل للآداب القومية، والتي تظهر في مرحلة متقدمة من التطور الحضاري للبشرية. وهذا ما نلمسه بوضوح في قول غوتة: " إننا نود أن نعيد إلى الأذهان من جديد أن مسألة توحيد العقليات الشعرية أمر مستحيل. فالحديث هنا يدور حول تعريف الشعوب بعضها ببعض، وليس عن أي أمر سواه. وحتى إذا اخفقت الشعوب في إقامة علاقات محبة متبادلة فيما بينها، فإنها ستتعلم على الأقل كيف تتحمل بعضها بعضاً[[3]](#footnote-3).

وهذا بالفعل ما أصبح سهل المنال بفضل التقدم التكنولوجي، وخاصة في مجال الاتصالات ووسائل الأعلام الحديثة، فقد ساعدت هذه الأخيرة في تقريب ثقافات الشعوب المختلفة وآدابها وفي النضج السياسي والتكامل الروحي على نحو متسارع بمضي الزمن، ولا نعني بذلك زوال الحدود الجغرافية أو ابتدال القيم وضياعها، بل التفاعل بين كافة القيم الإنسانية النبيلة، التي تسهم في رقي المجتمعات والأمم.

**الاتجاه الرابع**: ينظر للأدب العالمي على أنه الصفات العامة التي يتسم بها تطور آداب مختلف الشعوب والمناطق في جميع العصور وقد كان مكسيم غوركي أول من أشار إلى وجود مثل هذه الصفات حين كتب يقول " إنه لا يوجد أدب عالمي لأنه لا توجد لحد الآن لغة مشتركة بين جميع شعوب الأرض، ولكن الأعمال الأدبية لجميع الكتاب مشبّعة بوحدة المشاعر والأفكار والآراء الإنسانية العامة، وبوحدة الآمال لإمكانية تحقيق حياة أفضل"، ولعل هذا التفسير هو الأقرب إلى الفهم الحديث للمصطلح، ونحن ندرك اليوم بجلاء أن القيم الشعبية والقومية الحقيقية هي في الوقت ذاته قيم إنسانية شاملة[[4]](#footnote-4).

فمصطلح عالمية الأدب ينطلق أساساً من تجاوز الأدباء حدود ثقافتهم القومية والانفتاح على العالمية الواسعة.

**الأدب ما بين القومية والعالمية:**

إن النماذج الإبداعية تصب في شرايين منظومة الأدب العالمي بطرق ووسائل شتى. النتاجات التي تتميز بسماتها الفكرية والفنية العالية، تتجاوز الحدود الفاصلة بين الشعوب وتصل الى جمهور القراء في البلدان الأخرى، الذين لم يسبق لهم قراءتها، والأمثلة على ذلك كثيرة للغاية. الباحثون الألمان ادركوا عظمة شكسبير وشرعوا في الترويج لها على نحو أكثر توفيقاً من زملائهم الإنجليز. ولم يقرأ الناس شعر عمر الخيام - الذي أدهش العالم - الا بعد ظهور ترجمة فيتزجيرالد.

إن معظم الأعمال الأدبية تصل الى القراء عن طريق الترجمة، وثمة علاقة واضحة بين الاتصالات الأدبية الدولية النشيطة في أيامنا هذه وبين الاهتمام الساخن بالقضايا النظرية للترجمة الفنية. ولا شك ان النتاجات الأصيلة قد تفقد شيئاً من بريقها بعد ترجمتها، بيد أن هذا الخطر يظل قائماً في الحالات التي تقرأ فيها من قبل قراء لا يتقنون اللغة التي كتبت بها. ولا شك ان مبدعي الأدب في كل بلد هم الكتاب والمترجمون على حد سواء.

فثمة نتاجات تصبح جزء من الأدب العالمي بعد مضي فترة وجيزة من نشرها، ونتاجات أخرى لا تصبح كذلك، الا فيما بعد، وأحياناً في زمن متأخر للغاية، والبعض منها ينتظر دوره في الوصول الى المجد العالمي، ولكن دون جدوى، لأن الوصول الى العالمية يتوقف على أمور كثيرة. ويكاد يكون من المستحيل التنبؤ باللحظة التي يصبح فيها هذا الأثر الأدبي أو ذاك جزءا من الأدب العالمي. ومن السذاجة ربط هذه اللحظة ببعض الحقائق، كظهور ترجمة لعمل أدبي ما في خارج البلاد أو الإشارة الى الكاتب في هذه المناسبة أو تلك خارج بلاده. وهذه تفصيلات قد تتفاعل وتشكل بداية لولوج الكاتب ساحة الأدب العالمي حين تكون نقطة انطلاق لعملية عضوية حية ولا تظل مجرد حقائق عرضية. في هذه اللحظة فقط يمكن اعتبار العمل الأدبي جزءاً من الأدب العالمي.

إن الوصول إلى العالمية لا يعني البقاء فيها إلى الأبد. فعلى سبيل المثال نرى أن "اناتول فرانس" دخل الأدب العالمي منذ البدء، بينما نراه في العقود الأخيرة يلفظ خارجاً ليحتل المرتبة الثانية. وكذلك جورج ويلز، الذي لم يلق في بداية الأمر صعوبة في دخول الأدب العالمي، ولكن أين موقعه اليوم؟ انه في الواقع خارج إطار هذا الأدب. وعلى هذا النحو نرى ان مدى الاعتراف بكاتب ما قد يتعزز أو يتراخى، بل وقد ينقطع لفترة قصيرة أو إلى الأبد. الكاتب الذي يظل حياً في الأذهان هو الذي تصمد أعماله الإبداعية أمام الزمن وتعاقب الآراء والأجيال واجماعها على قوة هذه الأعمال وفرادتها.

ومما لا ريب فيه أن عزلة الأدب القومي عن الآداب الأخرى يؤدي إلى تأخره، والنجاحات التي حققتها الآداب القومية عبر التاريخ كانت بفضل اعتمادها على الاقتباس من الخارج واستيعاب وهضم وتمثل هذا الاقتباس، من أجل تحقيق أكبر قدر من التعبير الذاتي بمعونة الآداب الأخرى أو في الصراع ضدها.

إن مكانة الدولة في العالم ونفوذها السياسي والاقتصادي وعدد سكانها ومدى انتشار لغتها، تلعب دوراً كبيراً في الاعتراف العالمي بكتابها الذين يعكسون حياتها الروحية في نتاجاتهم. أما آداب الشعوب الصغيرة واللغات قليلة الانتشار، فإنها تحتل مواقع أسوأ بكثير نسبياً من آداب الشعوب الكبيرة، واللغات واسعة الانتشار من حيث الاعتراف العالمي بها.

ليست ثمة آداب عالمية متعددة، بل أدب عالمي واحد على الرغم من ذيوع رأي خاطئ يقول بوجود هوة بين ما يسمى "الروح الأوروبية" من جهة وبين "الروح الآسيوية" أو "الروح الأفريقية" من جهة أخرى. إن الذين يعتنقون هذا الرأي يعالجون وضعاً تاريخياً معيناً ويتناولونه كوضع ثابت لا يتغير بمضي الزمن. وبالطبع فإن هذا لا يعني أن الأدب العالمي وحدة يسودها الانسجام، فثمة أمر واضح هو تشابه آداب مجموعة من البلدان من حيث التعبير عن العالم الروحي لشعوبها.

فعلى سبيل المثال نجد أن آداب بلدان أوروبا الشرقية أكثر تشابهاً فيما بينها من الآداب الأخرى. والآداب الأوروبية الغربية أو الأميركية الشمالية أو الأسترالية، هي اليوم أكثر قربا بعضها من بعض من آداب المناطق الأخرى. وكذلك آداب بلدان أمريكا الجنوبية المدونة باللغة الإسبانية، فإنها تتأثر كثيراً ببعضها البعض، وهذا التأثير أعمق من القشرة اللغوية. بيد أن تباين ظروف الحياة يؤثر أيضاً وعلى نحو شديد في نحت ملامح كل أدب من هذه الآداب، وتحديد السمات التي يتصف بها.

إن اهتمام الجماهير في شتى أرجاء العالم بنتاجات اتجاه أدبي معين - كالواقعية السحرية مثلاً -أو بظاهرة سياسية ما- كالإسلاموفوبيا في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية –يمارس تأثيراً قوياً في عالمية الأدب، ونعني بذلك، الدور الملهم للنجاح في التعبير الفني القوي عن روح العصر.

فكلما نطق الأديب بقضايا العصر ضمن انتشاراً واسعاً وسعى إلى العامية التي تفتح أبوابها على مصرعيها لانتشاره وتطوره بين الجماهير، والعكس يقال على الآداب التي لا تبرح الكتابة في مواضيع لم تعد تستهوي القراء والمهتمين من نقاد وأدباء، فيكون مصيره إما الزوال والنسيان وإما البحث عن أسباب أخرى تجعلها تستثير اهتمام القراء في أنحاء العام.

1. - مجلة المعرفة: وزارة التربية والتعليم، المملكة السعودية، مارس 2009، ص5. [↑](#footnote-ref-1)
2. - المرجع نفسه، ص7. [↑](#footnote-ref-2)
3. - المرجع السابق، ص8. [↑](#footnote-ref-3)
4. - المرجع السابق، ص 9. [↑](#footnote-ref-4)